

فلسطين.. أربعة آلاف عام في التاريخ

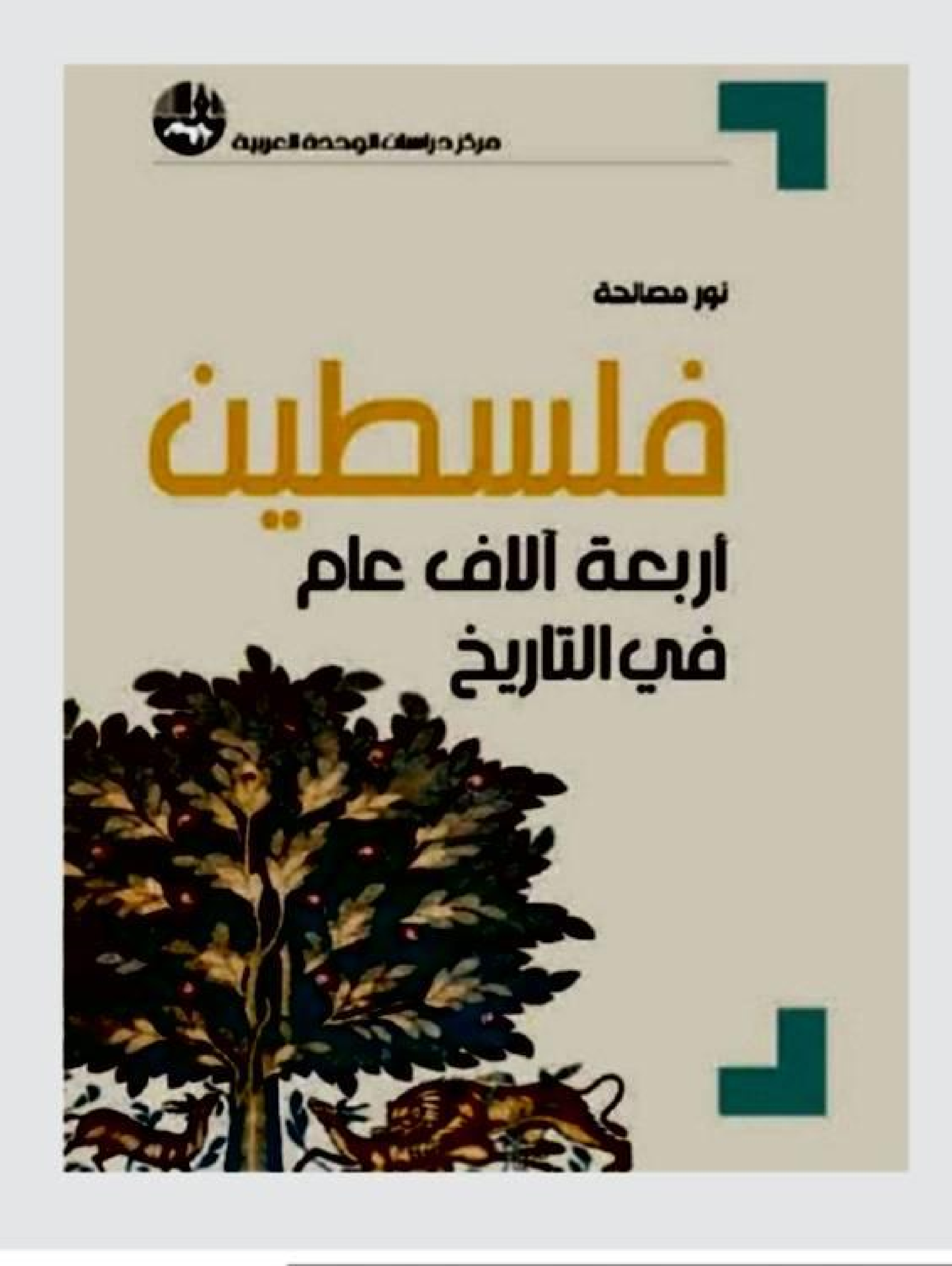
المؤلف: نور مصالحة

الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية

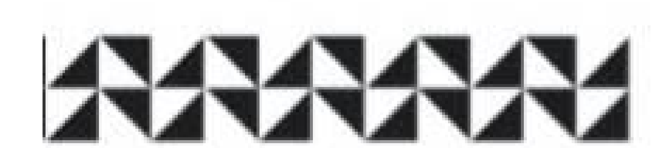
سنة النشر: 2020

عدد الصفحات: 480 صفحة

مراجعة: حسام أبو النصر



* كاتب ومؤرخ، عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين



يتوزع كتاب «فلسطين.. أربعة آلاف عام في التاريخ» على عشرة فصول يتناول فيها تاريخ فلسطين (الفلستي). وقدم مصالحة في الفصل الأول "الفلستيون وفلستيا الكيان الجيوسياسي الخاص: العصر البرونزي المتأخر حتى عام 500 ق.م". شمل خلالها الدلائل والنقوش لبلست والفلستينيين، وفي نفس الوقت تحدث عن ظهور اسم كنعان في العصر البرونزي المتأخر، وهو ما اختلف به الكاتب عن كثيرين، حيث لم يطلق اسم كنعان في عنوان كتابه، لذلك جاء عنوان فرعي آخر (غلبة اسم فلسطين منذ العصر البرونزي المتأخر) اسم كنعان في العصر البرونزي المتأخر، وتناول في نفس الفصل العصر النحاسي، واسمي بلستي وفلستيا في المصادر الآشورية، وامتداد بلاد بلست ككيان سياسي مستقل في العصر الحديدي من غزة إلى طنطور 712-1200ق.م، واعتبر أن فلسطين بلد العبور والطريق التاريخية (فيا ماريس)، وصكت النقود الفلستية- العربية وتمتعت بالسلطة، والاستقلال (بين القرنين السادس والرابع ق.م).

فيما حمل الفصل الثاني عنوان (بداية تاريخ فلسطين الكلاسيكي القديم وفي عصر الإمبراطوريات الهلينية 500-135 ق.م)، وناقش فيه الكاتب، الاسم الإغريقي (باليستينا) في المصادر الكلاسيكية والإغريقية- الهيلينية، وشمل ما تناوله هيرودتس وأرسطو في القرنين الخامس والرابع ق.م عن فلسطين، وأكد أن العالم والفيلسوف والمؤرخ الإغريقي الشهير أرسطو لم يذكر اسم كنعان، وأن فلسطين كانت على خريطة العالم لبطليموس، وأوضح أن الجغرافيين والمؤرخين الإغريق استعملوا اسم باليستينا في إمبراطوريتي السلوقيين والبطالسة، كل ذلك في محاولة للكاتب للتأكيد أن اسم (بلست، بالستينا) هو الذي كان يستعمل ويطلق على جغرافية فلسطين وليس اسم كنعان.

وهذا ما أكده أيضاً من خلال الفصل الثالث (من فلستيا إلى مقاطعة سورية باليستينا 135-390 مقاطعة فلسطين الإدارية الرومانية)، من أن فلسطين صارت واحدة من المقاطعات الإمبراطورية، واعتبر أنه في عهد هدريان ارتفعت مرتبة فلسطين، وتحدث عن التسمية الرسمية لمقاطعة سورية باليستينا في عام 135م، حيث ضم (هدريانوس) الذي حكم بين (117 و138م) ولاية الوكالة الصغيرة يوديا وهي تضم يهودا والسامرة مع فلستيا القديمة والجليل في الشمال وإيدوميا في الجنوب لتكون ولاية بروقنصلية جديدة كبيرة هي سوريا باليستينا، وتناول التطورات اللاحقة من سورية

باليستينا إلى باليستينا في زمن (فسبازيان) من سنة 69 الى 79م، حيث كانت جغرافياً يطلق عليها باليستينا في القرن الأول حسب سترابو، وبليني الأكبر، وبومبونيوس ميلا. وقد سميت باليتينا لدى الكتاب اليهود الكلاسيكيين.

وجاء الفصل الرابع بعنوان «بروفنسيا باليستينا (ثلاثة في واحد)» وقد ناقش المقاطعات الإدارية الثلاث في فلسطين البيزنطية (بين القرن الرابع وأوائل القرن السابع م)، واعتبر قيسارية ماريتيما (قيسارية البحرية) عاصمة ثقافية متوسطية، ووضح تمثيل فلسطين التاريخي الكنسي (كرسي رئيس أساقفة قيسارية)، وظهور كنيسة فلسطينية مستقلة أي العاصمة السياسية مقابل العاصمة الدينية في فلسطين، وتناول أيضاً فلسطين اللاتينية (في عهد الفرنجة)، والأدلة المادية والرموز القوية البيزنطية، ومن أهم مكتشفاتها خريطة فسيفساء مأدبا الأثرية عام 1884م، كما تناول إثنيات آسيا في فلسطين . وأهمية غزة باعتبارها المركز المتوسطي للأدب والبلاغة الكلاسيكيين، والدين الشعبي، ومهرجان الورد في غزة، ومدرسة الرهبانية وأديرة باليستينا وآباء وأمهات الصحراء وأثرهم العالمي.

وفي الفصل الخامس، تحدث عن فلسطين العربية المسيحية والملوك والأساقفة والشعراء العرب والقبائل في بروفنسيا باليستينا قبل الإسلام (القرن الميلادي الثالث- أوائل القرن السابع)، وناقش في عنوان فرعي واحد الشعر العربي الكلاسيكي وفلسطين البيزنطية شمل النابغة الذبياني (535-604م).

ولاية جند فلسطين العربية (638-1099م) عوامل الاستمرار والتكييف والتحول في العهد الإسلامي، كان عنوان الفصل السادس، وتحدث فيه الكاتب عن السريانية الآرامية الفلسطينية والعربية الفلسطينية وأسماء الأماكن الفلسطينية، وعوامل الاستمرار والتحول في ولاية جند فلسطين، واتساع جند فلسطين العربية من مرج ابن عامر إلى البحر الأحمر، وعواصم مقاطعة فلسطين العلمانية والمقدسة التي جسدت عظمة إيليا (بيت المقدس) والرملة في العهد الأموي، والنقود المصكوكة من عملة فلسطين، وأوضح استقلالها النقدي والآثار النمية العربية الإسلامية، وأيضاً تناول الحكم الفاطمي.

أما الفصل السابع (بين مصر والشام: فلسطين في العصرين الأيوبي والمملوكي والعثماني الباكر)، فشمل عرضاً لفلسطين على الخرائط العربية وخرائط البندقية (بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر)، ومنها خرائط محمد الإدريسي وبيترو فيسكونتي، ومارينو سانودو، وفرا ماورو (1450م)، وتحدث عن فلسطين الأيوبية واستعادة القدس الإسلامية بعد المرحلة الصليبية وانحدار مدن الساحل ونهوض المراكز الحضرية الداخلية، ودور القدس القيادي في العصر المملوكي (مدينة بلا أسوار) (1260م-1517م)، وتناول مدينة صفد كعاصمة للجليل، والذاكرة الفلسطينية الاجتماعية في الحقبتين المملوكية والعثمانية، وعرج على فسيفساء فلسطين التاريخية في القدس وصناعة الزجاج في الخليل.

وتحدث عن دولة فلسطين في القرن الثامن عشر من خلال الفصل الثامن والملامح العصرية الأولى والسيادة العملية، والذاكرة المحلية في العهد العثماني (1517 حتى ستينيات القرن التاسع عشر)، والدولة القطرية الفلسطينية ونظامي الظاهر عمر وأحمد باشا الجزار في القرن الثامن عشر، وتجارة القطن الفلسطينية مع أوروبا والثورة الصناعية، وفرض الضرائب والمقاطعات الحدودية وبروز السلطة المستقلة في فلسطين في القرن الثامن عشر، والسيادة الاسمية مقابل السيادة العملية، وقراءة لتاريخ فلسطين المعاصرة بعيون سكانها الأصليين.

وجاء الفصل التاسع بعنوان (أن تكون فلسطين، أن تصبح فلسطين) ناقش إعادة اكتشاف فلسطين الحديثة وصورتها الجديدة وأثرها في الهوية الوطنية الفلسطينية، والصورة الجديدة لفلسطين ما بين عامي 1805 - 1917، من خلال مرويات الترحال الغربية عن فلسطين، وأوضح دور الاستشراق الروسي الذي تمركز في أواخر العصر العثماني، ورسم خريطة فلسطين، على يد صندوق استكشاف فلسطين 1865-1877م . وخرائط فلسطين التاريخية والجغرافية والتقسيم الإداري لفلسطين، كما طرح إعادة تخيل للهوية الفلسطينية المحلية وبذور الوطنية أواخر العصر العثماني والوطنية الثقافية الفلسطينية واتخذ خليل بيدس نموذجاً، وتناول تدرج اللغة و الهوية المحلية وتظهير صورة فلسطين في الصحافة العربية الفلسطينية، ومصطلح فلسطين في مخطوطة روحي الخالدي غير المنشورة، وفلسطين الكيان الرسمي الإداري والإقليمي في زمن الانتداب البريطاني (1918- أيار 1948)، وتحدث عن المؤسسات والمنظمات الوطنية الفلسطينية بعد النكبة وسياسات منظمة

التحرير الفلسطينية الثورية، ومؤسسات الدراسات الفلسطينية وتكاثر جمعيات الأبحاث الحديثة.

فيما ناقش الفصل العاشر الاستعمار الاستيطاني وتجريد الفلسطينيين، ومحاولات العبرنة، وإخفاء القرى الفلسطينية وأسماء المواقع قبل 1948م، وإستراتيجيات الاستيلاء على أسماء الأماكن العربية من خلال تحويل المستوطنين الأوروبيين إلى محليين والتوسع في استخدام اسم فلسطين مقروناً بايريتس يسرائيل الصهيوني (من أواخر القرن التاسع عشر حتى 1948)، وأساليب وإستراتيجيات التسمية الجغرافية الصهيونية في مرحلة ما بعد النكبة، وعملية اختراع الذات وتحويلها إلى شعب محلي وقديم، والأسماء الجغرافية الأسطورية للمستوطنين الصهاينة وصليبيي القرون الوسطى اللاتين، في محاولة لخلق ماضٍ قابل للاستعمال، وتحويل الآثار التوراتية الإسرائيلية ديناً علمانياً، لتأكيد الملكية من خلال تركيب أسماء التوراة والتلمود والمشناه.

لا شك أن الكتاب جاء بمعلومات هامة وعامة، في عشرة فصول، تتفرع منها عناوين فرعية جاء بعضها طويلاً، وبشكل أدبي فلسفي مستوحاة من التاريخ، وقد تناول حقباً تاريخية متنوعة رغم أنها غير متسلسلة، حيث جاء عرض الكتاب بشكل عرضي لا بتسلسل تاريخي بشكل عام، رغم أن بناء بعض الفصول جاء طولياً تاريخياً، لكن من الملاحظ التفاوت في بنية وأوزان فصول الكتاب، فمثلاً، جاء الفصل الثاني في عشر صفحات، فيما وقع الفصل العاشر في 80 صفحة، ما عكس فرقاً شاسعاً في العرض، وهذا ما قد يقودنا لإشكالية في المنهجية.

من المهم الإشارة إلى أن الكتاب مترجم عن إصدار بالإنجليزية جاء بعنوان: (Palestine: A Four Thousand Year History) صدر في لندن 2018، بترجمة فكتور سحاب لمركز دراسات الوحدة العربية، لكن اعتبار أن الكتاب موجه إصداره للغرب ليس مبرراً لأية اختلالات في موضوعيته أو منهجيته التاريخية، فهو كتاب في التاريخ لا الرأي التاريخي.

ويمكن اعتبار أن الكاتب رغب بالتعقيب على التاريخ، لا كتابته، فمثلاً، ينفي هذا الكتاب علاقة بلست وبلستينا بكنعان والكنعانيين، وهذا ما يرد صراحة في ص95: «إن إحلال عبارة كنعان الغامضة وغير الدقيقة محل الاسم الجغرافي الرسمي الحقيقي والتاريخي باليستينا الذي استخدم في

الحقبة الكلاسيكية، مدة تزيد على ألف عام، يعادل إلغاء تاريخ هذه المنطقة، ويقيم عوائق أساسية تحول دون فهم العصرين الكلاسيكي والقديم والمتأخر...».

ليس من الواضح هنا ما إذا كان الكاتب يرمي إلى أن استخدام مصطلح كنعان بحد ذاته غير دقيق، وأن الكنعانيين ليسوا كنعانيين، وكيف سيحل فلست والفلستيين محل الكنعانية الأقدم منها؟! إن عدم وضوح هذه المحاور يشي بأن الكاتب يرغب بفرض طريقته على القارئ لقراءة التاريخ دون حيادية أو موضوعية، ما يخرج الكتاب من مساحة التعقيب التاريخي إلى كتابة التاريخ بشكل قطعي، ليكون حقيقة مطلقة حسب منظوره.

وقد لاحظت أن العناوين بشكل عام الخاصة بالفصل أو الفرعية جاءت طويلة، وقد يكون هدف الكاتب تخصيص الحقبة أو تحديد الموضوع، وهذا يفتح المجال ما إذا كانت هناك مواضيع أخرى لم يتناولها عن تلك الفترة.

وقد تتسق هذه المنهجية وهذا التوالي في الكتاب مع عدد من الكتابات والمفكرين الغربيين، منهم "توماس طمسون" و"انغرد يلم"، الذين اعتمدوا في كتابتهم على إعادة قراءة لا ما جاء في الاستشراق بالذات، ونفي ما جاء عنهم بشكل جزئي على الأقل، ومن هذه الإنتاجات كتاب "الماضي العصي دراسات في تاريخ فلسطين" الذي قدم إعادة قراءة للتاريخ الفلسطيني عبر عدة محاضرات تتفق ورؤية مصالحة، وهذا يختلف عن مطلبنا بإعادة كتابة التاريخ وليس قراءته فقط، وفق المنهجية التي تتطابق مع المكتشفات الأثرية التي ندعو لها جميعاً، وبهذا السياق، قدم مصالحة الشكر لتوماس طمسون وروزماري صايغ، وحمدان طه وغيرهم من الذين أمدوه بالوثائق التي اعتمد عليها بشكل كبير في كتابه، وهذا ظهر في عناوين الكتاب في المقدمة، مثلاً: من الاستشراق التوراتي المركز على فلسطين إلى تواريخ إسرائيل الجديدة، والكتابات الاستشراقية التوراتية والاستعمارية، ونلاحظ أن مصالحة يبدأ كتابه بتسمية فلسطين الموثق في العصر البرونزي المتأخر، 3200 ق.م باليونانية، ويقول إن هناك تسميات أخرى مهدت لهذا الاسم، منها (دجاهي وريتينو وكنعان)، وعموماً، عنوان الكتاب «فلسطين أربعة آلاف عام في التاريخ» بحد ذاته يأخذنا من اللحظة الأولى لجدلية من المفروض ألا نزج القارئ بها، فتحديد العنوان في تاريخ يمتد لألفي عام قبل الميلاد وألفي عام بعد الميلاد لا يعكس مفهوم التاريخ الفلسطيني الذي يمتد لآلاف السنين.

بل إن الكاتب ناقض العنوان في صفحة 147، حيث يقول: «تأسست غزة قبل أكثر من 5000 عام، وهي واحدة من أقدم المدن». وهنا إشكالية أن هذا التاريخ أقدم من عنوان الكتاب مثلاً! خاصة إذا كان لا يوجد لها اسم آخر كما يفترض الكاتب سوى فلستيا. وإذا افترضنا أنه أراد فقط الحديث عن 4000 سنة من تاريخ فلسطين، فإن هذا الذكر لا يقع في الإطار التاريخي الذي أورده الكتاب. وفي الحالتين هناك مشكلة. وإذا افترضنا أنه يقصد الحقبة الفلستية والفلستينيين، فقد كان من الممكن أن يسمي الكتاب مثلاً «بيلستا أربعة آلاف عام في التاريخ، ليوضح أنه يقصد تاريخ شعب بلست، أو فلسطين البلستية، كما نقول فلسطين البيزنطية أو فلسطين الكنعانية كدليل على الحقبة التي تناولها الكتاب.

وبالتأكيد شعب بلست ليس طارئاً في المنطقة، بل مؤسس وأصيل ولا يشبه الحضارات العابرة، لكن هذا لا ينفي أصوله وامتداده وارتباطه بالكنعانيين الموجودين قبل هذا التاريخ بـ 2000 عام أو أكثر، أي أن دراسة تاريخ فلسطين الشامل تمتد على خط زماني يصل إلى أكثر من 6000 عام، على اعتبار أن الإنسان وجد في فلسطين قبل آلاف السنين، والنطوفيون وآثارهم شاهد على ذلك. أما التاريخ الكنعاني، فمحفور في رسائل تل العمارنة المصرية ومعابد الكرنك، وما زالت المكتشفات الأثرية تتحدث عن ملوك كنعان، أي قبل التاريخ التي تناوله مصالحة بمئات وآلاف السنين.

استعرض مصالحة في كتابه الحياة قبل هذا التاريخ بشكل عابر، ما فتح الباب موارباً للتأويل والجدل، ما وضعنا أمام كتاب ليس قاطعاً في مضمونه بشكل كامل، بل مادة تخضع للمراجعة والتدقيق وتقود للجدل، على مستوى التاريخ القديم وبعيداً عن العصور التي ركز عليها الكتاب على أقل تقدير.

لا تبدو أطروحة الكتاب أو أهدافه واضحة، ما يضعنا أمام إشكالية تحد من قدرتها على الحكم عليه، فإن كان الكاتب يرمي إلى تغيير ودحض الاعتماد على التوراة كأساس لكتابة التاريخ أو الكتب المقدسة، كان من الأفضل التركيز على هذا المحور باعتباره كتاباً تخصصياً، لكن عمومية الكتاب تضع القارئ والمتلقي في إشكال، إذ وصل بنا الكاتب من بليستينا إلى شعر درويش (ص 309) وإشكالية الهوية، وكأنه كان مكرهاً على سرد وقائع تاريخية ولو من باب الإلمام، حتى يصل إلى نقطة أو فرضية أراد أن يقولها أو يثبتها، ما شتت القارئ؛ ولكي أكون حاسماً في الحكم، هذا الكتاب ليس مرجعاً

تاريخياً رغم ما جاء فيه من وقائع تاريخية مهمة. وهذا ليس للتقليل من أهميته. بل لأن طريقة العرض بحد ذاتها حددت مسار الكتاب. فيأخذك إلى زوايا معينة وفق رؤية الكاتب. ويضعنا في إشكالية ما إذا كان الكتاب يعالج اسم فلست أو تاريخ فليستيا. أم تاريخ فلسطين ككل!.

يحاول الكاتب ألا يعير مصطلح كنعان أهمية رغم الإتيان عليه بشكل متكرر. وكأننا نتوقف عند المصطلح دون الشعب الذي أطلق عليه الاسم. فيقول (ص 79) «إن لا حقائق مثبتة. فالكنعانيون هم أنفسهم الفينيقيون». ويكمل "لكن الاسمين اللذين يذكرهما العهد القديم الكنعانيين والإسرائيليين في فلسطين لا يشيران بالضرورة إلى إثنيات مختلفة أو يدلان عليها».

وفي (ص 146) يقول: «لخريطة مأدبا مستخلص شهير يبين الحدود بين مصر وفلسطين وليس من ذكر لكلمتي «كنعان» أو إسرائيل على هذه الخريطة التاريخية «وأعتقد أنها مقاربة غير منصفة. فحتى لو كان هناك ذكر. فإسرائيل التي يتوقعها أو يفترضها الإسرائيليون. والمراجع المتأثرة بالتوراة هي بعد كنعان بـ 2000 عام. فالمقاربة أو حتى المقارنة غير بريئة. أي أن الكاتب ذكر غير المذكور في الخريطة ليتوقع منه غير المتوقع. ووضع كنعان وإسرائيل في كفة واحدة متساوية.

ويقول في نفس الصفحة أيضاً: «الكنعانيون في فلسطين لم يكونوا يعرفون أنهم كنعانيون. لكن عندما غادروا وطنهم قالوا إنهم كنعانيون»!. ويكمل أن مؤلفي العهود القديمة في المنفى أطلقوا من خيالهم اسم كنعان. وهو عبارة عن صورة دينية أيديولوجية لدى هؤلاء المؤلفين.

ويقول: «استخدم اسم كنعان في العصر البرونزي المتأخر. لكن الاسم لم يكن يعني دوماً منطقة غرب نهر الأردن من غزة إلى نهر الليطاني». ويكمل أنه ليس الاسم الوحيد الذي أطلق على المنطقة في إشارة واضحة إلى أن كنعان مثله مثل أسماء أخرى أطلقت على فلسطين ولا يمثل مركزية تاريخية. وبعد هذه الإشارة غير البريئة عاد وذكر نقوش اسم كنعان في الشرق الأدنى والكتابة المسمارية وفي شمال سورية وفي 16 نصاً مصرياً.

كأن هذه الفقرات التي ذكرت هي رفع حرج عن الكاتب بمواجهة من يريد أن يدخل في جدال معه كونه يشكك في أن أصل الشعب البلستي كنعاني. رغم كل الدلائل التي تشير إلى الكنعانيين في مراسلات تل العمارنة وملوك الفراعنة مع ملوك كنعان. وفي مقال سابق كنت قد نشرته في العدد

9113 في صحيفة الحياة الجديدة بعنوان (الكنعانيون في معبد الكرنك). أكدت تلك المراسلات ومضمونها. وبالمجمل، خصص مصالحة الحديث عن كنعان والكنعانيين في أربع أو خمس صفحات فقط من أصل 460 صفحة. فيما خصص 100 صفحة فقط من الكتاب للتاريخ القديم السابق للفتح الإسلامي وجاء في خمسة فصول. منه عمق التاريخ القديم في 30 صفحة فقط. من صفحة 77 إلى صفحة 104.

أما من صفحة 179 إلى 425، وبواقع 247 صفحة، استعرض الكاتب تاريخ ما بعد الفتح الإسلامي وحتى التاريخ المعاصر. وهذا مأخذ باعتبار إهمال حقب على حساب أخرى. فالفتح الإسلامي غطي في الصفحات من 179 إلى 219 بواقع 40 صفحة فقط. أما العهد المملوكي، فغطاه الكاتب من الصفحة 219 إلى 240 بواقع 20 صفحة فقط. وانتقل الكاتب فجأة إلى العهد العثماني، في الصفحات من 241 إلى 270 بواقع 30 صفحة، فيما أفرد للتاريخ المعاصر الصفحات من 271 إلى 425 وبواقع 154 صفحة.

الحقيقة أن أغلب من جازف في كتابة تاريخ فلسطين في كتاب واحد وقع في هذا الفخ. تاريخ فلسطين لا يمكن إجماله في 460 صفحة، حتى لو قلنا أو أشرنا إلى أنه تاريخ مختصر -والكاتب لم يشر إلى ذلك- وبالتالي، شتت الكاتب النص بهذا التوسع. فكان من الممكن اقتصار الكتاب على التاريخ القديم، فإذا رغب الكاتب بتناول كل التاريخ، فما قدمه غير كافٍ ولا يغطي كل المراحل، بل قدم تغطيته التاريخية. وسأفترض معه أنه يعتمد على المنهج الغربي الذي يضع الاسم الثاني للكاتب وتاريخ الناشر بين قوسين في نص ومتن الصفحات وبشكل مفصل في الآخر (مع أن طريقة الهوامش والمراجع في هذا الكتاب لا توحي بذلك)، فإن هذا أيضاً لا يعطي الحق أن ينقص الكاتب من كل حقبة حجمها وتسلسلها التاريخي بما أنه عنون الفصول بها.

ذكر الكاتب الشاعر محمود درويش وأشعاره في عدة مواضع وعناوين في الكتاب، منها صفحة 156، وص 271، وص 309، وص 231، وكان يمكن تخصيص هذه المساحة للمعلومات التاريخية الناقصة في الكتاب، رغم أنه ناقش من خلال أشعاره الهوية والوطنية الفلسطينية وهو ليس من أولويات الكتاب بما حمله من عنوان، ما يؤكد يؤكد أن الكتاب موجه للغرب في ظل أن درويش غني عن التعريف بالنسبة للعرب والفلسطينيين على مستويات شعره وانعكاسه وأثره على الهوية الفلسطينية، وهناك كتب كثيرة تناولته

في هذا السياق. ويعود الكاتب ويخصص عنواناً فرعياً كاملاً ص 309 «(أن تكون فلسطين. أن تصبح فلسطين) في شعر درويش» كما استند الكاتب أيضا إلى الروائي إبراهيم نصر الله في أحد مراجعه لهذا الكاتب التاريخي.

أغفل مصالحة استعراض أسماء الفاتحين مع عمر بن الخطاب عند الإتيان على الفتح العربي الإسلامي عام 638م. وأقدر كقارئ للكتاب أن مصالحة هدف من خلال طول عرض الكتاب وعلى مر العصور تأكيده ذكر بلست وفلسطين في كل المراحل ليدحض من خلال ذلك الرواية الإسرائيلية ويؤكد أن الفلسطينيين الحاليين هم أصل وأهل البلاد. ويواجه مصالحة في كتابه محاولات العبرنة البريطانية والصهيونية ويدافع عن الهوية الوطنية. ولكن دون ربط ذلك بالحضارة الكنعانية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصالحة متخصص في البحث المعاصر من خلال أعمال هامة قدمها للمكتبة العالمية وليس فقط العربية بل باللغة الأجنبية أيضاً وشملت الترانسفير والصهيونية.

يبقى السؤال المفتوح للكاتب. الذي لم يعالجه في كتابه. إذا كان يتبنى أن بليستنا والبلستيين كشعب أقاموا هذه الحضارة على مدار 4000 آلاف عام التي تحدث عنها في الكتاب. ما آلهتهم التي عبدوها ولغتهم التي كتبوها؟. وما هو العصر الذي يشكلون امتداده؟ إن كان كنعان مصطلحاً غامضاً بالنسبة للكاتب!. فمصالحة أكد عدم وجود علاقة بين اسم فلسطين وكنعان وفق ما أورد (ص77) وقال إن أقدم الأسماء الجغرافية التقليدية التي أطلقت على المنطقة التي صارت تعرف في العصر الكلاسيكي القديم باسم فلسطين. لم تكن تنسبها إلى كنعان. بل كانت تسمى (ريتينو ودجاهي) المستخدمين في الكتابات والقصص المصرية منها (سينوهه). التي أكد في التعريف بالهامش أنها أدب خيالي مصري. خاصة أنه ذكر النقود البيلستية مثلاً. وفي صفحة 78. ذكر مصالحة بلست وفلسطين القديمة ولم يقل الكنعانيين. وأكمل أن المكتشفات الأثرية يمكن أن تساعدنا في قراءة تاريخ فلسطين من خلال رؤية السكان الأصليين. ولم يشر هل يقصد الكنعانيين أو النطوفيين حتى أو علاقة بلست بهم وتركها مفتوحة.

أعتقد أن هناك مدرسة تعتبر أن التاريخ الكنعاني أخذ أكثر من حجمه. وأن التركيز على هذا التاريخ جاء على حساب بلست والبلستيين الذين يُعتبرون فيما بعد شعباً واحداً تزاوج وعاش وتقاسم الحياة على هذه الأرض

-وهذا ما لم يقله مصالحة طبعاً-. أو كما قال إن أحدث المكتشفات الأثرية الحديثة عن فلستين القديمة (ولم يقل كنعان)، وهذا كله يفتح النقاش الفلسطيني الفلسطيني، حول كتابة التاريخ بشكله الصحيح الشمولي، غير الانتقائي.

من الملاحظ أن هناك عناوين ليست لها علاقة بالمضمون و لم يصلني كقارئ مراد الكاتب منها، مثل عنوان الدولة القطرية: دولة فلسطين ونظاما الظاهر وأحمد باشا الجزار في القرن الثامن عشر، ص 249 مضمونه جاء بعيداً بعض الشيء عن العنوان الفرعي، وكان من دمجه مع عنوان فرعي آخر، مع أنه في عناوين أخرى في نفس الفصل تحدث عنهم بشكل أوسع، ص 264 مثال.

وفي العنوان "المؤسسات والمنظمات الوطنية". (ص 336)، ذكر اتحاد الطلبة الفلسطينيين وقال إنه تأسس في القاهرة أوائل الخمسينيات وترأسه ياسر عرفات، والحقيقة أنه حمل اسم رابطة طلاب فلسطين، وامتد نشاطه منذ الأربعينيات برئاسة سليمان أبو ستة وغيره، قبل ياسر عرفات، وليس اتحاد طلبة، أما عرفات، فترأس الاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي ذكره مصالحة في نفس الصفحة أنه تأسس عام 1959 أي بعد سنوات.

في نفس العنوان، تحدث الكاتب عن مؤسسات السلطة، ومن الطبيعي هنا أن يذكر المؤسسات جميعها أو لا يفصل في ذكرها، فلاحظت أنه انتقى من كل ذلك دائرة الآثار والتراث الثقافي التي المفروض أنها تبعت وزارة السياحة والآثار، وهذا نموذج للانتقائية في الكتاب.

من الملاحظ أيضاً أنه سقط سهواً من الكاتب ذكره بعض المراكز المهمة في إطار ذكره تحت عنوان" ستوديا باليستينا". وتحدث عن أهم المراكز والجمعيات في فلسطين، ولم يذكر منها مثلاً بيت الشرق وجمعية الدراسات العربية في القدس، أو مركز التخطيط الفلسطيني الذي كانت تصدر عنه مجلة التخطيط، وكانتا مؤسستين مهمتين بعد النكسة، فإذا كان هدفه ذكر بعض المؤسسات فقط، فالأولى به ذكر بيت الشرق كمؤسسة دراسات مهمة في الشرق الأوسط وكان لها بعد دولي مهم، كما أن الكاتب أنهى الكتاب بخاتمة للفصل الأخير وليس خاتمة للكتاب ككل.

وقد اعتمد الكتاب على 24 مرجعًا عربيًا مقابل 588 مرجعاً أجنبياً، منها مجموعة لكتاب عرب كتبوا بالإنجليزية، أي أن أغلب المراجع أجنبية، حتى

فيما يخص التاريخ المعاصر، كما يلاحظ أن هناك تواريخ لا تنتهي بحرف (م) دلالة على التاريخ الميلادي.

من المؤكد أن الكتاب ذو أهمية، وجاء سردياً لأحداث منفصلة، وليس كمرجع تاريخي، وهو قراءة للكاتب أكثر من أنه كتاب تاريخي متخصص، الكتاب فيه معانٍ، فيه ثقافة عامة عالية، فيه عبر، وأشعار، وفيه كلمات، وعبارات، واقتباسات، وجمل وإشارات مختلفة، كل ذلك أغنى الكتاب وأضاف للقارئ؛ لكن لم يضف للمرجعية التاريخية، سوى مزيد من الجدل ولم يفك اللغز القائم ومحاولات البعض فرض نظريات تشغل العالم في إطار التشويق، ما شتت المكتبة العربية والباحث في التاريخ.